

تقرير عن وضعية المخطوطات العربية بموريطانيا

الأستاذ محمد الأمين البان

معهد موريطانيا العلمي السعودي

يتميز المخطوطات الموريطانية في الظرفية الحالية عن المخطوطات في الغرب الإسلامي، والتي أكدت معظم العروض التي قدمت بشأنها، بأن مهدها حضري، لكون مهدها المخطوطات الموريطانية بدوية، وهذا ما يجعله يختلف عن غيره من المخطوطات نظرا لأنه ظل بعيدا عن المؤثرات التي تصيب عادة المخطوطات في البلاد المتحضرة من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك بعض السلبيات التي تعاني منها المخطوطات الموريطانية والتي لا تواجه المخطوطات الموجودة في البلاد الحضرية. كانت أول عملية تدوين وتسجيل للمخطوطات الموريطانية هي التي قام بها المعهد الموريطاني للبحث العلمي في مجلة شهرية عليها صورة لمئارة المسجد القديم، أي مسجد شنقيط باعتباره معلمة من المعالم التاريخية الهامة بموريطانيا شأنه في ذلك شأن الزوايا التي تعتبر مهدها للفكر.

فمن المعلوم أن هذه الزوايا قد احتضنت العلوم والفكر عامة خلال ستة أو سبعة قرون مضت، حيث ظلت متوفرة في الصحاري وفي البوادي، محافظة بذلك على تاريخها العربي الإسلامي نظرا لكون معظم المشايخ ظلوا يحافظون على هذه الزوايا بالرغم من تعرضهم لمطاردة المستعمر، فكان هذا سببا من بين الأسباب التي جعلت الاستعمار وعلى مرور خمسين سنة غريبا عن موريطانيا، فلم يتغير طابع التاريخ العربي الإسلامي في البلاد، وظل المخطوطات باعتباره جزءا من هذا التاريخ محافظا على أصالته، إذ أن يد المستعمر لم تعبت إلا ببعض المراسلات

السياسية التي كانت بينه وبين المتأمرين معه. أما أمهات الكتب فلم تصل إليها يد العابثين وهذا ما يستدعي التنويه بما قام به هؤلاء المشايخ. يضاف إلى ذلك أن عملية جمع هذا التراث لم تكن بالأمر السهل كما كان عليه الشأن في المغرب أو الجزائر أو تونس أو مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية. وفي إطار الحديث عن المخطوطات الموريطانية لابد من التعريف بطبيعة البيئة التي يوجد فيها هذا الأخير، وبمجهودات العلماء والمشايخ الموريطانيين، خاصة إذا علمنا أنهم كانوا بمثابة رحالة، ونضرب مثالا لذلك بما قام به الشيخ محمد الأمين ولد التلاميذ الذي كون مكتبته المعروفة الآن في مصر، والتي تم تأميمها بعد ثورة سنة 1952، وقد ظلت موريطانيا تطالب مصر برد هذا التراث الهام. وفي هذا الصدد نتوجه بنداء حتى يرد لموريطانيا تراثها المخطوط، خاصة وأن له ورثة شرعيين هم أبناء الشيخ، ومن المعلوم أنه في الشرعية يعتبر الكتاب كالتقود والحيوان وسائر الممتلكات.

كان أهم ما كتب فيه الموريطانيون هو علوم القرآن والتوحيد والفقهاء المالكي بصفة خاصة، وقد برعوا في ذلك كما برعوا في النسخ، ولا زالت مهنة النسخ موجودة في موريطانيا وبشكل طبيعي لا يتقاضى عليها الناس مرتبا بل هي هواية طبيعية بالنسبة للإنسان الموريطاني.

وعلى سبيل المثال نذكر بروز العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم في تكانيت، وهو عالم معروف زار المغرب أيام مولاي إسماعيل، وبعد تحقيق كتاب هذا العلامة من طرف الدكتور محمد حجي في السنوات الأخيرة اتضح أنه ضم أسماء لعلماء موريطانيين، منهم من نهل من معرفة الشرق والأندلس فألفوا وجلبوا معهم بعض المخطوطات من الأندلس ومن المشرق ومن المغرب، مثال ذلك ما قام به الطالب أحمد المسوني في هذا المجال.

إن أهم ملاحظة يمكن استخلاصها من خلال هذا الملتقى هو أن الباحثين الكرام قد اعتمدوا في أبحاثهم على ما هو لديهم، وذلك إما في حدود صلاحياتهم داخل الدوائر التي يعملون بها، وإما في إطار تعاملهم مع جهات ثقافية متعددة ومختلفة في ميدان المخطوطات، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لموريطانيا خاصة وأن ما سجل من هذه المخطوطات يظل ضعيفا بالمقارنة مع الزخرف الهائل الذي تتوفر عليه موريطانيا في هذا المجال. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك سابقا فإن المخطوطات الموريطانية تظل متميزة عن المخطوطات في الغرب الإسلامي، وهذا ما يجعلنا نطرح

بعض التساؤلات : هل تترك المخطوطات في موريطانيا على ما هي عليه ؟ أم نمد أيادينا لإنقاذ تراثنا المخطوط ؟ هل نجمع هذه المخطوطات ؟ هل تنتقل بين الزوايا حتى نجمع منها ما نستطيع جمعه ؟ فمجموع هذه الأسئلة وغيرها كثير طرحت إما على المستوى الرسمي وإما على المستوى الغير الرسمي. فكان أهم عمل قامت به موريطانيا في هذا المجال هو حصر بعض هذه المخطوطات في شنقيط، وهي القلعة الإسلامية القديمة التي اعتبرت مهدا لبعض هذه المخطوطات. وبالفعل فإن جامع شنقيط يضم مكتبة خاصة في ملك أهل البشير، وهم علماء معروفون في المنطقة، استطاعوا أن يقوموا بجمعها في سجلات وهذه السجلات عرفت تنظيما حسب النمط التقليدي للتسجيل.

أمام هذه الوضعية الغير مشجعة، وعلى ضوء العروض التي تم إلقاؤها على امتداد ثلاثة أيام من هذا الملتقى، فقد كنا ننتظر من هذا الجمع الكريم أن يخرج بفكرة عامة نعود بها كورقة عمل نقدمها للمختصين بالمخطوطات في موريطانيا الذين يتكلمون باسم الشرعية القانونية لجمع المخطوطات، إلا أننا لم نلمس اقتراحات عملية يمكن الاستفادة منها لإنقاذ المخطوطات والعناية بها.

فمخطوطات الغرب الإسلامي والحالة هذه لا يمكنها أن تستمر استمرارا حضاريا بهذا الشكل إلا إذا اعتبرنا أن العلماء والباحثين قد تخلوا عن مهامهم الأساسية، وهنا لا يمكن أن نلقي اللوم على أحد معين أو جهة معينة، فالمشكل بهم الجميع والمسؤولية ملقاة على عاتق كل الجهات مادام المخطوطات تمثل تراثا حضاريا، والحضارة ملك للأجيال وهي ربط بين الماضي والحاضر، ثم إننا بصدد حضارة تتميز بصفات وخصائص معينة، ألا وهي الحضارة الإسلامية التي ليست لشعب دون آخر أو للون معين أو لجهة دون أخرى.

في ظل الاقتراحات التي قدمت وأمام الوضعية المزرية التي توجد عليها العديد من المخطوطات في العالم الإسلامي، وبهذه المناسبة التي لا تتكرر مثلها إلا نادرا نود أن نخرج بورقة عمل تدعو إلى ضرورة خلق رابطة للمخطوطات الإسلامية العربية في الغرب الإسلامي، أساسها رابط إنساني، سموها إنسانية أو رابطة حضارية، هدفها إنقاذ المخطوطات في الغرب الإسلامي وعلى رأسها المخطوطات الموريطانية لأنها تتعرض إلى كوارث طبيعية أكثر من غيرها. فماذا عسى أن تكون طبيعة هذه الكوارث الطبيعية ؟

في مقدمة هذه العوائق نجد الجفاف الذي زحف على الزوايا مما يجعل الشيخ يغادر زاويته بحثا عن موطن جديد يستقر فيه، وبذلك ينفذ كثير من الطلبة الذين يكونون حوله والذين يقومون بالاستنساخ والتدريس والدراسة فيكونون في خدمة الوثيقة الإسلامية أي المخطوط. وفي هذا الصدد نتوجه ببناء مستعجل لمن يريد أن يساهم في عملية إنقاذ المخطوطات بموريطانيا، خاصة وأنها تزخر بثروة جد هامة من المخطوطات، والتي لازالت تعاني من قساوة الظروف الطبيعية، إذ أن معظمها لم يسجل ولم يعالج ولم يرمم بعد، وهذا ما يجعلها عرضة للتلف والضياع. فالهدف الأساسي الذي سعينا إلى الوصول إليه من خلال هذا السرد هو الوقوف على واقع مزرر، واقع يدعو بحق إلى القلق، بل القلق الشديد، ويتطلب إثارة الهمم قصد النهوض بهذا الجانب من تراثنا العربي الإسلامي، وحتى يتسنى ذلك فإننا نرحب بكل من يريد التحقيق علميا في هذه المسألة، ونعده بأننا سنعمل على تسهيل مأموريته ومساعدته، ومن أراد أن يتفضل بمساهمة خيرية في هذا المجال فسنكون له من الشاكرين.

المخطوطات والوثائق العربية بالخرانة العامة وخرانة الجامع الكبير بتطوان

الأستاذ محمد الأمين بوخبزة

مؤرخ بالخرانة العامة — تطوان

«المكتبة العامة والمحفوظات» هو الاسم الذي أصبحت تحمله هذه المؤسسة الوطنية بتطوان قاعدة شمال المغرب غداة استقلال المغرب، وكانت النية متجهة إلى جعلها مكتبة وطنية جامعة للكتب والمخطوطات، والوثائق والمستندات بعد تأسيسها سنة 1939 بعاصمة ما كان يسمى بالمنطقة الخليفة على عهد الحماية الإسبانية لشمال المغرب، وبعد أن كان مقرها الأول بساحة الفداء (ساحة الحسن الثاني) الآن، بتطوان في بناية متواضعة، ومحتوياتها تتجاوز بضع مآت، منها مخطوطات لا تبلغ المائة. نقلت إلى بناية جديدة كبرى أطلق عليها إذاك (المعهد الرسمي) هي الآن (ثانوية القاضي عياض). وهناك بدأت حركة التنمية والاستيراد، فاشترت لها مكنتات برمتها، كمكتبة ابن الصديق بطنجة، ومكتبة العلمي بشفشاون، ومكتبة الزواق بتطوان، أفرزت مخطوطاتها وأضيفت إلى قسمها، وبعد استقلال المغرب نقلت المكتبة إلى بناية لائقة اشترت لها، بأكبر شوارع المدينة (شارع محمد الخامس) حيث مقرها الآن، وأعدت إعدادا حسنا، وأصبحت قبلة الباحثين والعلماء والطلبة من المغرب وغيره، ومازالت تؤدي رسالتها على أحسن حال، ورغم أنه لم يضاف إلى رصيدها المخطوط من الكتب والوثائق إلا شيء تافه، مع العلم أن كثيرا — وكثيرا جدا — من نوادر المخطوطات، وذخائر المصنفات، خرجت من تطوان وقبائل المنطقة الجبلية والغمارية، على يد السماسرة الذين يجولون خلال قراها ومداشرها، ويشترونها بثمن بخس، وهي البقية التي سلمت